الرجل الزنجي

قصة بقلم زكريا ناصر

ـ ١ ـ

شمسي هذا النهار قرص مستدير اصفر .. يرفد في شرايين ضوئه شيء غامض ودي يضفي مسحة من الوداعة والطمأنينة على كل الاشياء التي يمسها . واني لاتطلع فيما حولي بشيء من النهم فأبصر الابنية الغافية باستسلام تحت زرقة السماء التي يتبعثر عبر فضائها بضع غيوم رقيقة بيضاء ، وارى عن بعد سيارة تنساب خفيفة هادئة متزنة ، وأشجارا خضراء متفرقة .

وأسمع في تلك اللحظة صوت الرجل الزنجي يهتف :

ـ آه .. ما أجمل أن أكون حيا !

والرجل الزنجي صديقي الاوحد .. وهو يحبني بصدق ولا يفارقني لحظة .. انه قابع في داخلي.. انه طيب بريء كطفل ولد بعيدا عن المدن.. ولكنه يغدو في بعض الاحيان شريرا الى حد يبعث على الازدراء .

وأنا اتحدث معه باستمرار .. نتناقش معا ونضحك ونبكي .. وقبل أيام كنت جالسا في غرفتي اتحدث معه حين دخلت امي بهدوء ودون ان انتبه اليها فقالت لي ضاحكة :

ـ هل جننت ؟ .. انك تتحدث لوحدك !

ولم اجبها بكلمة فهي لن تفهمني لو حدثتها عن صديقي الجديد الذي اكتشفته في ايام وحدتي .

واتاني صوت الرجل الزنجي متسائلا :

ـ انت سعيد .. ما السبب ؟

ـ لقد رجع الخريف .. انظر حولك .. آه ما اسعدني لاني حي !

وطفقت امشي بخطوة متمهلة بينما تلتهم عيناي كل ما تصادفانه في ذلك الشارع الفرعي البعيد عن الصخب .

وامامي كان يسير شاب كتفه ملتصقة بكتف فتاة شعرها اسود طويل ينسدل على كتفيها بشكل ساحر .. وكانا يتحدثان بألفة .. وربما كان الشاب يقول للفتاة :

ـ سنتزوج في يوم قريب .

فتجيبه قائلة بحرارة :

ـ وسيكون لنا منزل صغير .

ـ وسنتشاجر احيانا .

ـ وسنتهي مشاجرتنا بقبلة .

ـ وسننجب اطفالا اذكياء جمالهم فاتن كجمال أمهم .

وتملكني شوق لرؤية وجهيهما .. ووجدت نفسي أحث خطوتي حتى أصبحت اتقدمهما ثم تطلعت اليهما وعلى شفتي ابتسامة كلها حنان ومحبة وكان وجه الشاب وسيما لطيفا .. واما الفتاة فجمالها رقيق جذاب .. فيا للعاشقين السعيدين !

وانساب الي صوت الفتاة .. وكانت المسافة التي تفصلني عنهما قصيرة للغاية .. وكانت الفتاة تقول :

ـ هل لاحظت كيف تطلع الينا هذا المعتوه ؟ ان منظره مضحك .

ولطمتني ضحكتان انطلقتا نحوي كمدينتين قاسيتين .. وفي الحال استحالت بهجتي الى جثة باردة متعفنة .. وراح الرجل الزنجي ينتحب انتحابا مفجعا وهو يردد :

ـ انت مضحك .. لنرجع الى غرفتنا .. انت مخلوق مضحك ، ثيابك عتيقة زرية ، وشعرك مشعث لم تقترب منه يد الحلاق منذ امد طويل .

فقلت له :

ـ انت مسكين يا صديقي .. وانا مسكين مثلك .. الحياة جميلة ولكن بعض المخلوقات تشوهها بقسوة .. فلنرجع الى غرفتنا .

ـ ٢ ـ

هبط الليل الى الشوارع .. فتلألأت المصابيح الكهربائية في كل مكان محاولة ان تهزم عتمته .. وانا في هذه اللحظة شاب انيق ملتصق بمقعد حائر وسط صخب مقهى مزدحم .. فثيابي جميلة.. وياقة قميصي بيضاء صلبة تحنو على ربطة عنق ذات لون ينسجم بفتنة مع لون بذلتي ... وشعري مصفف بعناية . ويحيط بي عدد من الاصدقاء الغارقين في الضحك والحديث .

قال الرجل الزنجي :

ـ هنا مسرح بلا ستار .. مسرح ممثلوه جميعا من الهواة الذين يجيدون اداء ادوارهم الى حد يدعوك لان تعجب بهم رغم انهم مزيفون وتافهون ويستحقون الازدراء .

فسألته : هل تحب الناس ؟

ـ أنا لا احب سوى النساء ...

ـ أنت قذر .

فقال الرجل الزنجي : الانسان الكامل مزيج من القذارة والنبل .

ثم لاذ بالصمت وعدت اراقب الاصدقاء الذين كانوا منهمكين في تمثيل مسرحية ليس لها مؤلف معين ويحلو لي ان اطلق عليها هذا الاسم :

« أحذية اسمها الرؤوس » .

واصغي الى الحوار المتبادل فيما بينهم :

« تعشيت لحما مشويا وقد حاول البائع خداعي فلم ينجح لاني خبير في مثل هذه المسائل ... كم كلفك العشاء ؟ ليرة ونصف ؟.. هذا كثير.. لماذا ؟ .. أنا تعشيت عند صديق فاصولياء ورزا وكان الطبخ رديئا .. لقد اعلنت خطوبة صديقنا احمد .. من ؟ احمد الابله ؟ هات سيكارة .. اليوم اشتريت ورقة يانصيب ستربح الجائزة الاولى وسانفق المبلغ على مشروع خيري هدفه القضاء على الفتيات العازبات .. سأتزوجهن كلهن ان استطعت

... لو كنت تملك قنبلة ذرية فماذا ستفعل بها ؟.. سألقيها على بائع اللحم المشوي الذي حاول خداعي فلم ينجح لاني خبير في مثل هذه المسائل ... هل شاهدت الفيلم المعروض حاليا في سينما بلقيس .. لم اشاهده .. وانا ايضا لم اشاهده .. ظهري يؤلمني .. اذهب الى طبيب بيطري .. »

وشعرت بانه علي ايضا ان اذهب الى جهة ما .

وتلقفني الشارع بعد لحظة بين ذراعيه الصاخبتين بقسوة .

ـ ٣ ـ

كانت شفتاها القرمزيتان منفرجتين بشكل اثار الرجل الزنجي فصرخ :

ـ كفاك ثرثرة .. قبلها ..

فهمست : يجب ان امهد قليلا قبل الهجوم .

ـ قبلها قبلها قبلها .

فاطعته .. وتحركت ذراعي وطوقت خصر الفتاة واقترب فمي يبغي لقاء الشفتين اللتين بلون الدم ، فمال رأس الفتاة الى الخلف وقالت متمنعة بصوت متهدج :

ـ لا.. لا ..

ـ اذن انت لا تحبينني .

ـ أنا احبك وسأظل احبك حتى الموت .

ـ لماذا لا تتركيني اقبلك ؟

ولم تجب وظلت صامتة فادركت انها مصممة على هزيمة الرجل الزنجي فتصنعت الاكتئاب وقلت :

ـ لقد تبدلت منذ ان خطبت الى ذلك الرجل الاخر .. انت لا تحبينني ... وانا لا الومك فانا لست بالشاب الجميل الغني .

وابتعدت عنها وسقطت منهارا على مقعد طويل وجمعت كل براعتي في التمثيل وطليت وجهي بحزن .. ربما هو الذي جذبها الى الجلوس بجواري .

قالت :

ـ لماذا تسيء فهمي ؟.. انا احبك .. ولكن أوه .. انا لا اعرف كيف اعبر عما اريد .

كان وجهها رائعا .. قشه حمرة خفيفة تسري في الوجنتين .. وعيناها تحملان في اعماقهما نجمتين ترتجفان .. شفتاها زنبقتان ارجوانيتان .

وعاد الرجل الزنجي الى الصراخ :

ـ قبلها قبلها قبلها .

وعاد فمي يحاول الدنو من الشفة متوجسا وسرعان ما التقى بها برقة ما لبثت ان تحولت الى وحشية وجوع وتمرغ .

وهمس الرجل الزنجي بصوت متحشرج :

ـ قبلها مرة ثانية .. مرة ثالثة .. قبلها قبلها .. أنا سعيد فالمطر بدأ ينهمر فوق تراب الحقول العطشى .

وانحدرت شفاهي الى نهاية العنق ... ملتقى السحر والليونة والدفء الخلاب .. بداية رحلة الى بحيرات ترتجف تحت اقدام شلال من الرعشات المتشنجة .

واستنشق بشراهة العبير المتصاعد من اللحم الحار ..

وبقي الرجل الزنجي وحده متوحشا ضائعا عبر سهول خاضعة لشمس صيف مجنون ولاغنية خشنة ولقمر من الشمع .

ـ ٤ ـ

في صباح ما .. قلت للرجل الزنجي :

ـ انا نادم يا صديقي لاني حملت قدري في وقت جد مبكر .. ان لكل واحد من الاحياء عملا معينا وهدفا صغيرا وخيطا من البهجة البيضاء.

فقال : لا تندم .. يجب ان تبغض الندم .. انه السل في الدم .

فقلت متسائلا : الم تسأم من هذه الحياة العقيمة التي نعيشها .. ما رأيك ... هل نرجع الى العمل ؟

فاجاب بعد تفكير قليل :

ـ سنرجع .

وهكذا امتدت يدي لتفتح بابا قديما هجرته منذ زمن مديد .

ـ ٥ ـ

عقربا ساعة المعمل يزحفان بكسل .. فمتى ستزعق الصفارة معلنة انتهاء العمل .. فانا تعب الى حد عجيب ، والرجل الزنجي يكاد ان يختنق .. وارفع يدي وامسح بظهرها العرق المتصبب من وجهي بينما يتجمع ضجيج الالات المختلفة ويتحد في انشودة واحدة ضارية .. تقذفني الى قلب دوامة مجنونة ... تفتتني .. تمزقني .. ثم تعيد خلقي مرة ثانية بشكل جديد .. شيئا مخبولا يتضاءل باستمرار وسط غابة الحديد المزمجر .

وهمس الرجل الزنجي :

في المكتبات

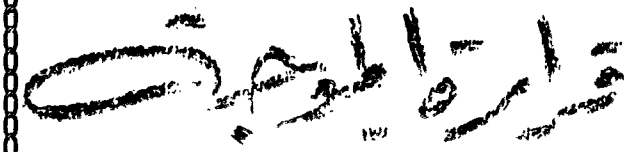

للشاعرة العربية المبدعة

نازك الملائكة

منشورات
دار الآداب

بيروت ص.ب. ٤١٢٣

ـ ساختنق .. يجب ان نبتعد عن هذا المعمل .. يجب ان نهرب قبل فوات الاوان .

ـ الى أين نهرب ؟

ولم يجب الرجل الزنجي ، وعدت اسأله :

ـ الى اين نهرب ؟.. ليس هناك اي مكان نقصده ... فالشوارع كلها مسدودة .

وتململ الرجل الزنجي .. وقبل ان يتكلم .. هبط على اذني صياح واحد من وكلاء صاحب المعمل :

ـ ما بالك متوقفا عن العمل ؟ اشتغل اشتغل .

وزمجر الرجل الزنجي غاضبا وقال :

ـ سأتركك ان اطعته فالخضوع له عار حقيقي

ـ اشتغل اشتغل .

ـ ابصق في وجهه

ـ عندها سأطرد من العمل .

ـ ستطرد من العمل .. هذا العقاب الوحيد الذي يملكونه وبه ستستعيد انسانيتك المفقودة وستهدم سدود الشوارع .

وجمعت لعابي في بصقة كبيرة قذفتها بازدراء .

وبعد دقائق كنت انفصل بوحشية عن كتلة ضخمة من السواد المتحجر الشاهق .. تهدر بغضب وتطلق خلفي عواء حادا .. لن أسمعه .

دار الآداب تقدم :

في أزمة الثقافة المصرية

بقلم الناقد المجدد

رجاء النقاش

دراسات عميقة شاملة عن قضايا الثقافة المصرية الحديثة ومشاكلها

صدر حديثا

كانت النجوم مبعثرة عبر الفضاء الاسود صغيرة بيضاء تتألق فوقي ببهاء غريب ، وكنت متمددا على ظهري .. تحتضنني ارض الحقل الصامت .. انصت الى اغنية الهواء المتسكع حول رؤوس الاشجار بينما يتموج في مخيلتي وجه امرأة قابلتها مرة في احد الشوارع فأذهلني جمالها ذو السحر الغامض الذي تشبث بي ومنحني نشوة محمولة على ارتجافة طويلة قاسية فكأنني ابصرت دفعة واحدة جبالا شامخة بمهابة ومدنا وديعة وبحارا بلا شواطيء وادغالا عذراء مغمورة بشعاع من شمس حمراء غاربة .

وتمتم آنذاك الرجل الزنجي بلهجة حالمة :

ـ اني اعرفها .

وعندها عشت لحظات خيل الي انناءها باني أحيا قبل ولادتي حياة عجيبة وكان حبي لتلك المرأة عنيفا انتهى بمأساة ما ..

ويتمطى الرجل الزنجي ... مبتهجا .. وتسري في اغنية الهواء نبرة جافة .. ويلتصق وجهي بالتراب الخشن الذي له رائحة جسد انثوي يمضغه جوع شبق همجي .

ويهتف الرجل الزنجي :

ـ الارض .. كم احبها .

واتمنى في تلك اللحظة لو تهطل امطار عجيبة تفقدني صلابتي فاتحول الى سائل تتجرعه الارض بشوق .

ويشتد حنين رئتي الى غيمات الدخان فتمتد اصابعي الى جيبي وتلتقط سيكارة ، وحينما توهج في الظلام عود الثقاب المشتعل سمعت حركة قريبة مني .. وكشف النور الهزيل عن جرذ ينبش التراب بانفه .

وانكمش الرجل الزنجي دونما كلمة .. وتساقط في دمي ثلج اصفر بليد ... قد يدنو مني هذا الجرذ .. وربما اندفع الي في اعقابه سيل جرذان جائعة .. سيغمر جثتي وينهش لحمها بشراهة .

واهب واقفا بحركة مباغتة ، ويبدو الحقل لعيني رقعة سوداء كبيرة تترنح في ارجائها وحشة مقبرة قديمة مهجورة . يغدو الهواء ثقيلا مغمما بنتانة لا ادري من اين اتت . ويطلق كلب قابع في مكان ما نباحا طويلا ممطوطا .

وتحركت قدماي بسرعة .. وراحت تتعاقب امامي بيوت من طين واشجار وسواقي ودروب ترابية ضيقة متعرجة .. ولم انوقف عن المسير الا عندما بلغت مدخل شارع تتناثر على جانبيه ابنية مستسلمة لسكينة باردة ، ويمتد اسفلته الباهت طويلا لامعا تحت صف من المصابيح الصفراء .

واشعلت سيكارة ثانية ثم سألت الرجل الزنجي بحيرة :

ـ الى اين نذهب ؟

وكف الثلج الاصفر عن التساقط في دمي ، وانحدرت الى عالم هادىء يتصاعد من كهوفه غناء كآبة متوحشة . وتساءلت وانا ادس يدي في جيبي بنطالي :

ـ هل مات الرجل الزنجي ؟

ويحلق غناء الكآبة المتوحشة فوق غابات من زنابق ذابلة سوداء . وانفث دخان سيكارتي بوجوم ثم امضي الى الامام .. ظهري منحن .. وحذائي يضرب وجه الرصيف ضربا سريعا متلاحقا رغم اني كنت ادرك بوضوح انه ليس لدى ما أفعله

دمشق

زكريا تامر